طرق تتلمس الليل

عبد الله التعزّي

من بين ذرات التراب انبثقتِ. رأيتُكُ تسيرين. لم أتحرّكْ من مكاني، ولم أقترب منكِ. المنازل الطينية تتعانق بكسوف مع البيوت الإسمنتيّة القاسية. تتقدّمين من نفسكِ باجتهاد. وتشدّين كثيراً على عباءتكِ السوداء التي كالليل بلا نجوم. انتصبتُ واقفاً خلف الجدار عندما سِرتِ بجوار حافة البئر. كانت البئر جافة تماماً، وصوت قدميكِ الحافيتين لا يكاد يصل إلى أذني. ألتصقُ بالجدار الطيني المتهدّم. قدماك تثيران القليل من الغبار. لا تخافي، سيري بحذر. لا تلتفتي إلى الخلف، لن يعرفكِ أحد. الجميع ممدّدون على أسرّتهم القطنيّة.

للحمام الذي ترين عيونٌ نائمة كما للقطّ الذي في طرف البئر الأخرى. وجهي لن يُرعبكِ كثيراً. أعرف أن سَوادَهُ غريب، ولكنني أعرفكِ.

لماذا أسرعتِ؟ أنا لم أتكلّم، وأنتِ لم تريني، والصمت مزّق أذني. فلماذا تنزعجين؟ لا. لا. سيري على حذر، كما من قبل.

تترنّحين الآن. نسمات الليل الساكنة تدفعكِ نحو البئر. لا. ابتعدي. ابتعدي. إنكِ تسقطين، احذري. تمسّكي جيّداً، فالحافة قاسية ويداك أفلتتا العباءة الممزّقة. هيا ارفعي نفسكِ. ارفعيها بقوّة فأنا متحفّز. لا ترخي أصابعكِ. حاولي الصعود بقدميكِ. لقد اشتدّت أنفاسكِ. لا تصدري أيَّ صوت. حاولي فأنا أتقدّم منكِ. أقتربُ من حافة البئر. لا تنظري إلى القطّ، فسوف يذهب بعيداً. لا تصدري أيَّ صرخة. عيناي تريانك. فزعُكِ يزعجني كثيراً. امدّ لكِ يدي بقوة. هيا تمسّكي بها جيّداً. البئر سحيقة ولن يسمعكِ أحدٌ داخلها. لمستُ يدكِ الطريّة. أعطني اليدَ الأخرى الدامية. لا تتردّدي. أستطيع إخراجكِ من البئر. هذه الشيخوخة التي ترين، أنا لا أعرفها. هي التي جاءت قبل سنوات. أرتجفُ قليلاً ولكنّكِ خفيفة. أسحبكِ بقوّة. ساعديني أنتِ أيضاً. ضعي رجلكِ على حافة البئر. لا تهتمّي بي. ادفعي بقدميكِ. أنفاسي دائماً لاهثة. تابعي المحاولة. سوف ننجح. أكاد أنزلق في البئر. استعدتُ توازني. هيّا تشجّعي. خذي أنفاسك الضائعة. ارتاحي فما زال الحمام نائماً منذ سنين.

– شكراً.

لن أجيبكِ. كنتُ أشاهدكِ منذ البداية. لن أتركِ تعودين. لقد اجتزتِ البئر. هيا اذهبي قبل أن يراكِ غيري. لا تتعجّلي. بقي صندوقان. خذي هذا. إنه جميل ومزيّن بالنقوش. لا تتردّدي في أخذه. حسناً انفضي الغبار عن العباءة أوّلاً، فمازال في طرفها بعض الغبار المتشبّث. لا يهمّ، اتركيه سوف يذهب إلى الأرض. ما زلتِ تفكّرين في الصندوق؟ حسناً لا يوجد الكثير من الوقت. خذيه وإذا لم يعجبك انسيه. تمدّين يدكِ. لقد ارتحتُ كثيراً. لن أرسم ابتسامة مرعبة. أنا أمدّ يدي بالصندوق. وأنتِ تمدّين يدكِ ببطء. تأخذينه الآن. لا تتكلّمي، واصلي المسير.

– لا تفتحي الصندوق الآخر.

لن أقول لكِ هذا فليس في فمي أسنان. تنظرين في عينيّ. تخفين الصندوق داخل العباءة. تتابعين السير، يدي الأخرى ممسكة بالصندوق الآخر. تبتعدين. تختفين في الإسمنت. ألتصقُ بالجدار الطيني. أتطلع إلى الليل وأنتظر زائراً آخر أراه يقترب...

الخبر